إشكالية ترجمة رؤى العالم في النصوص الأدبية

صغير مريم
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي- تيسمسيلت

ملخص:

نظرا لاختلاف اللغات التي تعتبر المادة التي يعمل بها وعليها المترجم صعبت مهمته على الرغم من كون هذا الاختلاف هو سر وجود الترجمة، وذلك لأن الترجمة ليست البحث عن مرادفات الألفاظ فحسب وإنما تتجاوزها للبحث عن كل ما تجره من خلفيات ثقافية، وتوجهات فكرية من أجل تحقيق أبعد هدف ترجوه الترجمة والمتمثل في النقل الوفي (الشكل) والمستوفي لمضمون الأصل (المعنى). فباختلاف الواقع الثقافي والحضاري للمجتمعات يختلف النظام اللغوي والأسلوب التعبيري، لأن اللغة هي تصوير لرؤية إلى العالم وتعبير عن تجربة خاصة فيه، تختلف عن باقي الأنظمة اللغوية التي لها، هي الأخرى، نظرتها للعالم وتحليلها له، وبالتالي التعبير عنه بطريقتها الخاصة.

مشاكل الترجمة الأدبية:

يعرّف محمد عناني الترجمة الأدبية على أنها ترجمة الأدب بفروعه المختلفة، أو ما يطلق عليه الأنواع الأدبية المختلفة مثل الشعر والقصّة والمسرح وما إليها، وهي تشترك مع الترجمة بصفة عامة إلّا أنّ لها ما يميزها عن الترجمات الأخرى فيما يخص العناصر البلاغية والبنائية والموسيقية، إضافة إلى الرؤى والأفكار والخيالات والأمثال وغيرها من العناصر الثقافية والنفسية والاجتماعية[1].

والترجمة باعتبارها «فعل معرفي أساس في التجربة الفكرية والثقافية للأمم»[2] فهي تتجاوز العنصر الفني الجمالي والفكري الدلالي، وترقى إلى الجانب الثقافي. أي أنها لا تنشغل باللّغة وتنحصر في مجالها، وإنما تصنع جسرا بين الثقافات، وتكون بعدا حواريا بينها، وتساهم بهذا في تطوير الأدب والإبداع.

يرى عبد الرحمن التمارة أنّ الترجمة الأدبية تدفع إلى التفكير في عدّة ثنائيات (**dichotomies**) وأبعاد[3]:

ثنائية اللّغة والفكر: وفيها تتجلّى المهارة اللّغوية في نقل النص إلى لغة الهدف من أسلوب وتراكيب وبناء شكلي ومحمول فكري، فبين البلاغة والإبلاغ يتحقق البعد التقني.

ثنائية اللّغة والثقافة: حيث أن النص يعبر عن ثقافة معينة. فهو يحمل فضلا عن البعد الإبداعي والتعبير الفني، بعدا إيديولوجيا تتجسد من خلاله الرؤية الخاصة والمميزة للعالم.

ثنائية لغة الذات ولغة الآخر: حيث تعتبر الترجمة الجسر الواصل بين الشعوب والأمم، والذي يقرّبهم بإطلاع كلّ منهم عن انجازات وأعمال الآخر وطرق عيشه ونظرته وتفكيره وكيفية تعبيره عمّا حوله وما يختلجه، فتعرف بالذات وتتعرف على الآخر، وبهذا تكون الترجمة قد حققت بعدا تواصليّا.

أي أن الترجمة الأدبية تهدف إلى تقليص المسافة بين الشعوب، وتصير قناة تواصلية تطلع عبرها أمّة على غيرها وتفتح مجالا لتطوير الأدب وخلق جمالية جديدة تولد عن فعل المقارنة بالغير. كما أنّها تساهم في إثراء اللّغة الهدف بمفاهيم ومصطلحات جديدة خاصّة باللّغة الأصل، فهي في خدمة المعرفة الإنسانية.

ومن تلك الأبعاد والثنائيات تتجلى الصعوبات التي يواجهها المترجم الأدبي، فمما سبق ذكره نستنتج أنّ هناك صعوبات متعلّقة باللّغة والبناء والتعبير، وأخرى سياقية، أي تتعلق بالسياق الثقافي والاجتماعي.

التداخل الثقافي:

إن أكثر ما يميز النصوص الأدبية هو أنها نصوص مفعمة بالشحنات الثقافية وتقوم على العديد من المعطيات الحضارية. وبما أنّ هناك خصوصيات لكل ثقافة تنطلق من مرتكزات بيئيّة وحضارية وتاريخية وظروف اجتماعية؛ فعملية الترجمة «تتجاوز المطابقة بين لغتين أو التعبير عن المعنى الواحد بلغتين مختلفتين بل هو التقاء كتلتين حضاريتين ثقافيتين لا يمكن الوفاء للمطابقة بينهما لأنّ بين الجنس والبيئة تعايش وتلاحم ثقافي قد يتجسد في أمثال شعبية، في عادات وطقوس، وصناعات ونحل في عبارات تضمينية قد تُحشن بكل تلك المظاهر أو ببعضها». (4)

فالترجمة هنا إذن لا توجب الوسائل الفنية والبراعة التقنية على المستوى البلاغي والجمالي للنص فحسب، وإنّما تتعدّاها إلى ترجمة شتى المضامين في مجالات وعلاقات تحيط بالظاهرة اللّغوية، حيث تختلف تجربة المرء باختلاف بيئته ومناخه وتضاريسه وتاريخه ومجتمعه وثقافته، وبالتالي رؤيته للعالم وكيفية التعبير عنها.

ويرى أوجين نيدا أنّه « قد تسبب الاختلافات بين الثقافات تعقيدات كبيرة للمترجم أكثر مما تسبّبه الاختلافات في البنيات اللّغوية.»

« Differences between cultures may cause more severe complications for the translator than differences in language structures » (5)

هذا يعني أنّه على المترجم، كي يتجاوز هذه العقبات، الولوج في الوقائع الثقافية الأجنبية، وأن يكون قادرا على أن يرى العالم الأجنبي الذي يترجم له، ويعبر عنه وأن يريه لمن لا يعرفه، أي قارئ الترجمة (6) .

الترجمة ورؤية العالم:

بعد أن دخلت الترجمة مرحلتها الفلسفية، ظهرت وجهة نظر في هذا الشأن عرضها "ويلهلم فون همبولت" **Wilhelem Von Humbolt** في بادئ الأمر، ثم أُعيد اكتشافها بدقة وتحققت على يد عالم اللّغة الألماني "إدوارد سابير" وطوّرها تلميذه "بنيامين لي ورف"، ولهذا سُميت بنظرية "سابير-ورف"، والتي مفادها أنّ الترجمة بين لغتين مختلفتين أمر مستحيل، وإن لم يوافق عليها الجميع ولم ترق إلى مستوى الإجماع إلّا أنّها ذات أهمية بالغة. حيث ترى أنّه «يتضمن كل نظام لغوي تحليلا للعالم الخارجي خاصا به ومختلفا عن تحليل سائر اللّغات أو عن تحليل اللّغة نفسها في سائر مراحلها. فالنظام اللّغوي مستودع التجربة المتكدسة جيلا بعد جيل، وهو يقدّم للجيل الآتي طريقة للنظر وتفسيرا للكون، ويورثه موشورا عليه أن يرى عبره العالم غير اللّغوي»(7).

وانطلاقا من أنّ لكل لغة نظرة مختلفة ورؤية خاصة للعالم، تتأسّس مسألة تعذّر الترجمة، إذ تعتبر «كلّ لغة نظام واسع من البنى يختلف عن أنظمة سائر اللّغات، وتنظم فيه ثقافيا الأشكال والفصائل التي بواسطتها يتصل الفرد، ويحلل الطبيعة، ويلاحظ أو يتغاضى عن هذا النمط أو ذاك من الظواهر والعلاقات ويعمل طريقته في التفكير، ويبني صرح معرفته للعالم»(8).

فما هو محبوب في لغة ما أي في ثقافة وبيئة ما، يبدو قبيحا ومكروها في لغة أخرى أي في ثقافة وبيئة مغايرة تماما، وما هو بديهي وتسلّم به الواحدة، لا يمكن للثانية أن تتقبّله، حيث لا يمكن لرجل الإسكيمو الذي يعبّر بألفاظ متنوعة عن مختلف حالات الثلوج وأسمائها أن يتقن مثل العربي وصف الإبل والإشادة بما يدّب في بيئته الصّحراوية، ولا يمكن للألماني تقبّل فكرة تناول طبق "الحلزون" الذي يثير اشمئزازه في حين يعتبره الفرنسي من الأطباق الرفيعة(9).

أي أنّ لكلٍ رؤيته الخاصة للعالم، فكما لصاحب النص الأصل نظرته الخاصّة، للمترجم الآت هو الآخر من ثقافة أخرى أيضًا منظارا آخرا، وسيعمل على ترجمة تلك الرؤى التي ستتصادم مع رؤاه، سواء أسقطها على

ثقافته أم غرّبها عنها، كان معها أم ثار ضدّها، استمدّ منها أم استنكرها وعزز ذاته. وهذا ما لا يسهل عليه مهمّته ولا يجعلها بالأمر الهيّن، ولهذا رأت نظرية "سابير-ورف" استحالة الترجمة.

وبناء على ما تقدم فإن المترجم يصطدم حقا بهذه الإشكالية، لكن هذا لا يجعل عمله مستحيلا، حيث أنّه، وإن اختلفت المجموعات البشرية، إلّا أنّ التجربة الإنسانية واحدة، والعالم الذي نعيش فيه، على اختلاف مجتمعاتنا وبيئاتنا وثقافاتنا، واحد، ولهذا ظهرت فكرة "الكليات" **les universaux** والتي تقول بأنّه «مهما اختلفت وجوه اللّغة (...) نجد فيها كليات أساسية، باطنية، وهي تظهر في كلّ اللّغات الخاصّة التي درست حتى الآن» [(10)]، أي أنّ الرؤى تختلف حقا لكنها تنظر إلى العالم ذاته. و«لأنّ جميع الناس يسكنون في كوكب واحد ويشتركون في الصفة الإنسانية مع ما يتضمّنه هذا من تماثل فيزيولوجي ونفسي»[(11)] ، فالمسافة تبقى نفسها سواء عبّرنا عنها بالأميال أو بالكيلومترات، والوقت نفسه سواء عبرنا عنه بأثلاث الساعة أو بأرباعها، والألوان نراها ذاتها سواء كنّا في الصين أو في الأرجنتين، ف «لا مبرّر للافتراض أنّ عمل خلايا شبكية العين أو خلايا قشرة الدماغ يختلف بحسب العرق البشري والمنطقة الجغرافية»[(12)]. فهي إذن كلّيات لغوية (أفعال، أسماء، ضمائر...)، وبيئويّة (أرض، سماء، مطر...)، وبيولوجية (غذاء، تنفس، نوم...)، ونفسية (فرح، حزن، خوف...)، وثقافية (لغة، دين، اقتصاد...)، يشترك فيها الناس عامّة، فتخلف العادات في التسمية فقط [(13)].

فللتعبير عن الاستعداد لأمر ما والتهيؤ له بجد مثلا؛ يستعمل العربي عبارة: **شمر عن ساعديه**، أي أبعد الثوب كي لا يعيقه، في حين تختلف نظرة الفرنسي الذي يستعمل، للتعبير عن الموقف ذاته، عبارة: **Être armé jusqu'aux dents**، أي أن يتسلح بكل ما قد يعينه.

ويقول العربي: **نمت على ضوء القمر**، في حين يتحدث الفرنسي عن:

dormir à la belle étoile، فالأول تمتع واستأنس بضياء القمر الذي لطالما تغنى به في شعره، بينما تتغير نظرة الفرنسي التي يصوبها نحو النجوم وجمالها.

وللتعبير عن صفة الوفاء؛ يقول العربي: **فلان أوفى من السموأل**، بينما يستعمل الفرنسي عبارة: **fidèle comme un chien**، وذلك لأن "الكلب" يعتبر في ثقافة الأوروبي بمثابة الأنيس والرفيق والحامي، ويمثل رمزا للوفاء، أما في ثقافة العربي فيعتبر نجاسة، ونعت أحدهم بالكلب شتيمة، إذ يقول المثل العربي: "الكلب كلب ولو طوقته ذهبا".

وتتجلى رؤى العالم أكثر ما تتجلى في التعابير الاصطلاحية التي تعد ناتج تجربة مجتمع ما وتعتبر مرآة ثقافته، حيث تعبر عن اتجاهه الفكري ونظرته للعالم، وفقا لبيئته الخاصة وتقاليده وعاداته وموروثه المتميز عن باقي الشعوب، وهذا ما يجعلها تعج بالشحنات الثقافية والخصائص المعيشية، وهذا هو بالضبط ما لا يجعل ترجمتها بالأمر الهين أو المستهان. ويمكن تعريفها على النحو التالي: التعابير الاصطلاحية هي "نمط من الكلام خاص بلغة ما، موجز ثابت يتصف بالمجاز، لا يترجم، يدرس كوحدة لغوية واحدة وفقا لقواعد لغوية خاصة تتفق أو تختلف مع القواعد اللغوية العامة"[(14)]. وهي تتميز بقوتها التعبيرية الحادة والثابتة إذ تحافظ على بنيتها التركيبية، كما لها حضور قوي، في منظومة الكلام، لأنها في غالبها مفعمة بالدلالات الايحائية ذات الأبعاد الجمالية والأسلوب التصويري، فيكون لها بهذا أثرا جماليا وتوضيحي على القارئ. ولهذا سلم البعض أن الأرجح ألا تترجم إلا بمكافئها، إن وجد، في اللغة المنقول إليها، فهو أوضح وأبلغ للمعنى. وفي حالة عدم وجود ما يقابلها يجنح المترجم لإيضاح المعاني المتضمنة في التعبير الاصطلاحي وإن كان هذا سيهدمه ويفقده قيمته التعبيرية، ويؤدي إلى خسارة على المستوى الأسلوبي، ولا يحقق الوظيفة الجمالية، لكن الأولى هو تأدية المعنى وإن كان على حساب المبنى.

التكافؤ الديناميكي:

يتعين على المترجم إيجاد المقابل الذي يعبر عن الوضعية ذاتها بأسلوب يتلاءم والسياق الثقافي المستقبل، وهذا ما يسمى بأسلوب التكافؤ(**l'équivalence**). وفي نظر نيدا الذي يفرق بين التكافؤ الشكلي، الذي يركز على نقل الرسالة، والتكافؤ الديناميكي، أن هذا الأخير هو إنتاج التأثير المكافئ على المستقبل، لأن نجاح عملية الترجمة منوط بمدى بلوغ الاستجابة المكافئة، وتحقيق وظيفة رسالة المؤلف الأصل، وعليه، يتعين على المترجم تعويض نظام ثقافي بآخر، لا تعويض نظام لغوي بآخر(15). فالتكافؤ الديناميكي إذن هو صيغة تعبيرية متأصلة في الثقافة المستقبلة، تسعى إلى ربط المتلقي بصيغه السلوكية المألوفة ضمن بيئته، دون التركيز على فهم الأساليب الثقافية المنقول منها (الثقافة الأصل).

وفيما يلي بعض الأمثلة:

المثال الأول: **Time is gold** **Le temps c'est de l'argent**

الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك

تستعمل اللغة الانجليزية للتعبير عن أهمية الوقت عبارة اصطلاحية تشبهه فيها بالمعدن الثمين المتمثل في الذهب، وتعبر اللغة الفرنسية عن المعنى ذاته فتعطي الوقت القيمة الثمينة ذاتها بتشبيهه بالمال الذي لا يجب تضييعه، أما اللغة العربية فتستعمل عبارة تبرز هي الأخرى قيمة الوقت لكن بمنظار مختلف، وتركز على أن الساعة تمضي إلى حيث لا رجعة.

المثال الثاني: **revenir bredouille**

رجع بخفي حنين

تضرب العرب هذا المثل لمن يعود إلى أهله خائباً، خالي اليدين وقد أضاع جهده وماله، مستعملة اسم علم، "حنين الاسكافي" وقصته، بمثابة عنصر دلالي يقوم عليه التعبير الاصطلاحى، أما في اللغة الفرنسية فتم تناقل هذا التعبير استنادا على لعبة قديمة تدعى"**tric trac**" عندما لا يربح أحد اللاعبين شيئا.

المثال الثالث: **«Il eu donné une de ses oreilles pour entendre de l'autre ce qui se disait là »** **(16)**

كان يود استراق السمع مهما كلفه الأمر ذلك.

وهنا أيضا يتجلى اختلاف الرؤى، إذ صور الكاتب الفرنسي موقف الشخصية، التي كانت تود التصنت ومعرفة ما يقال ولو كلفها ذلك التضحية بإحدى أذنيها، بصورة بلاغية ذات قيمة تعبيرية جمالية جسد فيها المشهد. أما اللغة العربية فتنظر للوضع ذاته بمنظار آخر، فتعبر عن ذلك التصنت والتلصص للاستماع باستراق السمع، وهو تعبير بلاغي ذو قيمة لا تقل جمالا عن مثيلتها في اللغة الفرنسية.

المثال الرابع: **« Son visage se rembrunit en même temps que le ciel,… il éprouva de mortelles transes »** **(17)**

وفي هذا المثال وصف لوجه أخذ لون السماء التي تلبدت بالغيوم، ومال إلى السواد، ما لم تكن ترجمته حرفيا ممكنة، بحيث يدل سواد الوجه، بعين عربية، على الغم والهم، لا على الخوف، وما يمكن اقتراحه هو المتداول والمألوف، أي: يغشاه الخوف.

المثال الخامس:

« … la face rouge comme le disque solaire quand il se couche » **(18)**

يتعلق الأمر هنا أيضا بالألوان واختلاف الادراك الحسي لها من ثقافة لأخرى، حيث أخذ الوجه لون الشمس الأحمر وقت المغيب، إذ يعبر احمرار الوجه هذا على شدة برد صاحبه، بينما يدل على الغضب إذا ما نظرنا إليه بمنظار الثقافة العربية، ولهذا يكون الأرجح ترجمة العبارة بما هو متداول في اللغة العربية بقولنا مثلا: أقرسه البرد.

الخاتمة

نظرا لتباين الثقافات واختلاف أنماط عيشها وتضارب آرائها ووجهات نظرها، يجب على المترجم ألا يكون ضليعا في اللغتين المنقول منها والمنقول إليها فحسب، وإنما عليه أن يكون واعيا بأسرار اللغتين، ومدركا للفروق بين العالمين وخصوصيات كل منهما أيضا، كما عليه أن يكون على قدر كاف من المرونة من أجل إنتاج الغرض المرجو من الترجمة، وباعتباره "خبيرا" في الاتصال بين الثقافات عليه أن ينقل الخصائص المميزة للغة الأصل بكل سلاسة إلى اللغة المستقبلة، وبصيغة تخدم الغرض التفاعلي الذي أراد المؤلف خلقه بين النص ومتلقيه، الشيء الذي لا يتحقق إلا إذا لبس المترجم ثوب المؤلف الأصلي، أو بمعنى أدق، إلا إذا سافر إلى عالم المؤلف وعاش في بيئته وتكلم لغته حتى يفهم قصده الحقيقي وما يرمي إليه.

الهوامش

1-ينظر محمد عناني، الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، مصر، 2003، ط2، ص7،8.

2-عبد الرحمن التمارة، من نقطة التحويل إلى دائرة المثاقفة www.aljabriabed.net/n86_04tamarai.htm

3-ينظر م.ن

4-محمد الأمين بحري، أهمية الترجمة وشروط إحيائها، مطبعة دار الهدى، الجزائر،2007 ص354.

5- The Issue of translating culture : a literary case in focus, theory and practice in language studies, vol.2.N°1,pp183-186, january 2012, academy publisher, Manufactured in Finland.

6-ينظر ماريان لودورير، الترجمة: النموذج التأويلي، ت.فايزة القاسم، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2012، ط1، ص166

7-جورج مونان، المسائل النظرية في الترجمة، ت.لطيف زيتوني، دار المنتخب العربي، لبنان، 1994، ط1، ص87.

8-م.ن، ص90.

9-يُنظر عبد القادر سلامي، الترجمة في ضوء رؤية العالم و ثقافة النص، مجلة دراسات العالم الإسلامي،7مارس2014، ص02.

10-جورج مونان، م.س، ص233.

11- م.ن، ص235.

12- م.ن، 237.

13-م،ن، ص229، 259.

14-علاء الحمزاوي، المثل والتعبير الاصطلاحي في التراث العربي، ص22

15- إدوين غينستلر، في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة، ت. سعد عبد العزيز مصلوح، بيروت، 2007، ط1، ص 152،149.

16-Jules Verne, Le tour du monde en quatre vingt jours, édition du groupe « Ebooks libres et gratuits », 2204, p263.

17- Ibid, p 320.

Ibid, p 305.